

مجموعة من الآباء الكهنة والإخوة الإكليريكيين  
من إيبارشية سمالوط  
بدير القديس أنبا مقار بوادي النطرون  
الثلاثاء ٢٩ أغسطس سنة ٢٠١٧ م

## معنى أن المسيح هو رأس الكنيسة وعلاقة ذلك بالقيامة والصعود إلى السماء

• يقول القديس بولس الرسول في رسالته إلى أهل أفسس: «يُعطيكم إله ربنا يسوع المسيح، أبو المجد، روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرةً عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين، حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح، إذ أقامه من الأموات، وأجلسه عن يمينه في السماويات... وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل» (أفسس ١: ١٧-٢٣).

حين نقول إن الكنيسة هي جسد المسيح، فهذا يعني أن الكنيسة خلقت في المسيح يوم وُلد بالجسد، ثم أظهرت للحياة، بقيامة هذا الجسد من الموت، وصعوده إلى أعلى السموات، وجلسه عن يمين الآب. ولأن قيامة المسيح أعلنت لاهوته، كما يقول الرسول بولس: «تعيّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من بين الأموات، يسوع المسيح ربنا» (رومية ١: ٤)، بقيامة المسيح، صار المسيح رأس الكنيسة. وهكذا صار الفداء كله، الذي أكمله المسيح، هو من أجل الكنيسة ولها.

وقول القديس بولس الرسول: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة»، يعني أن كل ما ناله المسيح من نصرة وسلطان بقيامته من الموت بجسده، وصعوده إلى السموات بجسده، قد صارت هذه القوة لحساب الكنيسة التي هي جسده.

هذه هي العلاقة الكيانية بين الرأس والجسد، أي بين المسيح رأس الكنيسة، وبين الكنيسة التي هي جسده. إنه هو الذي أتحد بنا بجسده الذي أخذه متناً، حباً فينا وتنازلاً لأجلنا. وهكذا فإن الكنيسة التي هي أصلاً جسد المسيح، لا يجبا فيها الإنسان منفصلاً عن المسيح.

والمسألة هنا ليست مجرد انتساب، وكل له كيانه المنفرد، المسيح من جهة، والجسد ككنيسة من جهة أخرى، لا فالجسد يستمد الحياة والفكر والتدبير من المسيح الرأس. هذا هو سرّ المسيح والكنيسة. فجسد المسيح المنظور، بعد أن أكمل الفداء والخلاص، صار غير منظوراً الآن، لأنه دخل في غير المنظور، أي لأنه دخل إلى مجده.

المسيح دخل إلى مجده بالقيامة والصعود إلى السماء، وجلسه عن يمين أبيه، ولكن الجسد بقى على الأرض كما هو في أشخاص المؤمنين الذين آمنوا به، إذ هم جسده الذي هو الكنيسة. ولا تزال كل كنيسة محلية في العالم، تمثل جسد المسيح منظوراً وغير منظور، بل كل جماعة مؤمنين اتحدت بالإيمان والروح والمحبة، بل كل اثنين أو ثلاثة اجتمعوا باسمه. إذاً؛ فالمؤمنون هم جسد المسيح "غير المنظور"، والمنظور للمسيح فقط، لأنه هو الرأس.

### • والآن علينا أن ننتقل إلى مرحلة أكثر عمقاً.

بعد أن يكشف لنا القديس بولس هذا السرّ العظيم، وهو أن الكنيسة هي جسده، يقول أيضاً إن «الكنيسة التي هي جسده، ملء τὸ πλήρωμα الذي يملأ الكل في الكل»، فهو هنا يصف نهاية وغاية التدبير الذي تجوزه الكنيسة، حتى تبلغ القامة الكاملة للمسيح، ليس على المستوى الفردي، وإنما كجسد منجمع متحد معاً، كقول المسيح: «كونوا أنتم كاملين،

كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل» (متى ٤: ٤٨). ويقول القديس بولس الرسول في نفس الرسالة إلى أفسس: «الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات، لكي يملأ الكل» (أفسس ٤: ٩، ١٠). فواضح من الكلام، أنه صعد فوق جميع السموات، بقصد أن يملأ الكل، والكنيسة بالدرجة الأولى. أي يملأ الكنيسة بكل ملئه.

هذا يعني أن الكنيسة ليست فقط جسد المسيح، بل هي ملؤه أيضاً، أي ملء المسيح الذي يملأ الكل في الكل. فالكنيسة هي التعبير الكامل للمسيح، الذي هو نفسه يملأ الكل «صعد أيضاً فوق جميع السموات، لكي يملأ الكل» (أفسس ٤: ١٠).

فما هو هذا هو الملاء الذي تتكلم عنه الرسالة إلى أفسس، والذي صار للكنيسة بصعود المسيح إلى السماء؟

هذا الملاء هو المسيح نفسه، الذي ملأ ويملأ الكنيسة كلها، حتى تبلغ الكنيسة إلى ملء قامة المسيح. وهو ما يقوله الرسول بولس: «بل صادقين في المحبة، ننمو في كل شيء إلى ذلك εἰς αὐτὸν الذي هو الرأس المسيح» (أفسس ٤: ١٥). إن εἰς αὐτὸν أي «فيما له»، أي فيما للمسيح. أي «ننمو فيما للمسيح». فيكون المعنى: «ننمو في ما له، في كل شيء»، أي ننمو فيما للمسيح في كل أمور الحياة.

إن أعظم مكسب كسبته الكنيسة بعد أن أعطاهها المسيح جسده، هو أنه صعد أيضاً فوق جميع السموات، من أجل الكنيسة، لكي يملأ الكل. فالمسيح الآن وقد استرد مجده وسلطانه فوق كل شيء، فهو حينما يملأ الكل، فهو يملأه بحضوره الإلهي الفائت، استعداداً لتغيير كل شيء إلى حالة «جسد مجده» (فيلبي ٣: ٢١)، فالمسيح يملأ الكنيسة لكي تبلغ تمام كمالها، أو بمعنى أعمق، لكي تبلغ كمال حقيقتها، أو لتستعلن الحق الذي فيها استعلاناً كاملاً.

فالمسيح لما صعد وارتفع فوق جميع السموات، فإنما كان ذلك لكي يحضر الخليقة وكل الأشياء، إلى حقيقتها الجوهرية النهائية، أي لكي يحقق وجودها، ثم بعد ذلك يقبلها في نفسه، حينما تبلغ نهايتها الحقيقية. وهذا يعني أنه هو الذي يملأ الخليقة في كل أجزائها، وحينئذ يتم القول القديم لإرميا النبي: «أما أملاً السموات والأرض يقول الرب» (إرميا ٢٣: ٢٤).

فالكنيسة عليها أن تعبر الصليب والموت والقيامة، لتكون مؤهلة للصعود والجلوس معه. أي ننمو في الجسد على الأرض نحو الرأس الذي هو في السماء. وأصبح على الرأس، أن يسكب على جسده المتغرب على الأرض من ملته، كل ما يلزمه ويؤهله للنمو في طريقه المؤلم الصاعد من الصليب للقيامة. وهكذا وهب المسيح الكنيسة مواهب الروح القدس، لكي بحضوره الإلهي الفائت فيها، يسكب عليها من محبته ونعمته ومجده ولاهوته، كرباط الرأس بالجسد.

+ بملاً الكنيسة من محبته؛ كما في قوله له المجد: «ليس لأحد حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه... قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يوحنا ١٥: ١٣-١٥).

+ وبملاً الكنيسة أيضاً من نعمته؛ كما في قول القديس يوحنا البشير: «ومن ملته نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يوحنا ١: ١٦). ويقول القديس بطرس الرسول: «فألقوا رجاءكم بالتتمام على النعمة التي يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح» (١ بطرس ١: ١٣).

+ وبملاً الكنيسة أيضاً من مجده؛ يقول السيد المسيح في صلاته الشفاعية، لدى الآب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يوحنا ١٧: ٢٢). ويقول القديس بولس الرسول: «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف، كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عنها، من مجد إلى مجد، كما من الرب الروح» (٢ كورنثوس ٣: ١٨). وأيضاً: «متى أظهر المسيح حياتنا، فحينئذ نظهر أنتم أيضاً معه في المجد» (كولوسي ٣: ٤). ويقول القديس بطرس الرسول: «إن غيرتم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجد والله يحل عليكم» (١ بطرس ٤: ١٤).

نقول في القداس الإلهي عن العذراء القديسة مريم: «المملوءة مجداً العذراء كل حين، والدة الإله القديسة الطاهرة مريم».

ونقرأ في بردية دير البلايزا<sup>(١)</sup>، بعد قول الكاهن: "قُدُوسٌ قُدُوسٌ قُدُوسٌ رَبُّ الصَّبَاوُوتِ، السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَمْلُوءَتَانِ مِنْ مَجْدِكَ"، يقول مباشرة: "املأنا نحن أيضاً من مجدك، وتفضّل وأرسل روحك القُدُوسَ علينا وعلى هذه القرايين...". وهو أيضاً نفس ما نقوله كل يوم في صلاة الأجبية: "أحظنا بملائكتك القُدُوسين، لكي نكون بمعسكرهم محفوظين ومُرشدين، لنصل إلى اتحاد الإيمان، وإلى معرفة مجدك غير المحدود وغير المحسوس".

+ ويملاً الكنيسة أيضاً بلاهوته؛ يقول القُدُوسُ غريغوريوس اللاهوتي في عظة له عن الظهور الإلهي (عظة رقم ٣٨):  
[إنه يفتقر بأخذ جسدي، لكي أعتني أنا بلاهوته].

وهذا هو ما نصليه في صلاة الصلح الأولى في القُدُوسِ الغريغوري القبطي، وهو قُدُوسُ القُدُوسِ غريغوريوس اللاهوتي:  
"عند صعودك إلى السَّمواتِ جسدياً، ... ملأت الكُلَّ بلاهوتك".

وفي النِّص اليوناني للقُدُوسِ الغريغوري، تأتي هذه العبارة هكذا: "وعند صعودك إلى السَّمواتِ جسدياً، مالتاً الكُلَّ بلاهوتك θεϊκῶς τὰ πάντα πληρῶν".

وأيضاً في صلاة للحجاب<sup>(٢)</sup> في نفس هذا القُدُوسِ، يقول الكاهن:  
"نسألك أيها الكلمة الأزلي، طهّرنا في هذا الوقت الذي نأتي إليك فيه. أنت الذي أتى إلينا بجسده غير المتغيّر، وملأت الكُلَّ بلاهوتك غير المحصور" (ص ٤٥٥)<sup>(٣)</sup>.

والقُدُوسُ بولس الرُّسول بعد أن يقول: «فيه (أي في المسيح) يجلُّ كلُّ ملء اللاهوت جسدياً»، يكمل بقوله «وأنتم مملوؤون فيه» (كولوسي ١٠:٢). أي أن الكنيسة مملوءة فيه، أي أن الكنيسة - في المسيح - قد امتلأت بكل ملء الله. وهذا يقوله القُدُوسُ بولس: «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أفسس ٣:٩). أو كما يقول القُدُوسُ يوحنا «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا، ونعمة فوق نعمة» (يوحنا ١:١٦).

وخلاصة القول هي أن المسيح هو ملء الكنيسة، ملء الجسد. فالله اتحد بالجسد اتحاداً كلياً وكاملاً، ملأه ملأً. هكذا يملأ المسيح الكنيسة جسده، وهي البشرية المُخلصة، يملأها ملأً كلياً، ولكن هي لا تتحد، يملأها بمواهبه التي لا تُحد، ويملأها بروحه الذي لا يُحد، ويملأها بوجوده الذي لا يُحد، يملأها بلاهوته الذي ملأ جسده، ولاهوته لا يُحد. ولكنها لا تصير بذاتها إلهاً، ولكنه يجيئها معه ويقدّسها له. فهي لا تخرج عن كونها مجموع المؤمنين وقد اتحدوا بالروح، ولهم صورته في البر وقداسة الحق.

١- دير البلايزا بالقرب من أسيوط، ويرجع تاريخ نساخة البردية، إلى القرن السادس الميلادي، أمّا النِّص نفسه، فيرجع إلى القرن الثالث أو الرابع على أقصى تقدير.

Robert, C.H., & Capelle, Dom B., *An Early Euchologium*, Louvain 1949.

٢- صلوات الحجاب في أصولها السريانية، كانت بمثابة تحليل يُقال للكاهن الخدم، قبل أن يدخل إلى الهيكل ليصلي القُدُوس.

٣- المرجع هو خولاجي سنة ١٩٠٢ م.